



بقلم: الدكتور مصطفى يوسف اللداوي*

أحاد في الأمة العربية والإسلامية هم الأسرى والمعتقلون وإن تجاوزت أعدادهم في السجون والمعتقلات الإسرائيلية الآلاف إذ يزيد عدد الأسرى الفلسطينيين الذين سبق اعتقالهم مرةً أو مرّات عدةً أو أولئك الذين ما زالوا يقبعون في سجونهم الآن عن المليون أسير من الرجال والنساء والأطفال إلا أنهم رغم كثرتهم يبقون أقليةً لا أكثريةً وطلائع المقاومة لا جيشها وسنا الشعب لا نوره وبريقه لا وهجه وعلى الرغم من ذلك فإن صوتهم الذي يخترق صمم جنود العدو يملأ الفضاء كله ويغطي الكون بأسره ويخترق الأفق على امتدادها ويُسَمِعُ الجوزاء في عليائها البعيد ودوماً تنتصر إرادتهم على صخب سلطات السجون وغطسة ضباطهم وحقد أجهزة قمعهم ومرض نفوسهم وخبث ضمائرهم.

صوتهم بالحق صدادح لا تحده الحدود ولما توقفه السدود ولما تحول بينه وبين الأمة طول المسافات ولما وهَمَّ السيدات ولما حاولت المنع أو مساعي الفصل فصوتهم ضمير الأمة الميقظ وروحها الأبية ينطق باسم القضية ويعبر عن رأي الشعب وهم خير من ينصح ويسدي وأفضل من يشير ويستشار وأصدق من يوجه ويرشد وأسمى من نرفع إليهم قضاياها وآخر من يستفيد من ألامنا ويتاجر بأحزاننا ويوظف همومنا أو يخون دماغنا أو يفرط في أحلامنا ويتخلى عن أهدافنا.

إنهم نخبةٌ مختارةٌ وثلةٌ منتقاةٌ وعصبيةٌ منيرةٌ كالنجوم في كبد سمائنا الملبدة بالغيوم تلمع وكالمقمر في ظلمائنا ينير تصدح بالحق الأبلج ألسنتهم ولما تخاف وترفع الصوت المجلجل ولما تتردد وتعبر بحريتها عن رأيها ولما تتأخر وتفرض بالمعاناة والألم إرادتها ولما يصدها عما تريد قهر المسجان ولما ظلم الجداد ولما صمت العبيد ولما عجز القعيد.

إنهم يختلفون عن غيرهم ولما يشبهون سواهم ويتميزون عن أقرانهم ويتفوقون على لداتهم وأندادهم رغم أنهم ضعافٌ في البنية وليسوا أقوياء في الجسد ونحافٌ في الشكل وليسوا أصحاباً في البدن ولكنهم كالجحافل يجتاحون وكالجيش يزحفون وإرادة كما الفلوات يصمدون وبثبات كما الجبال الراسيات يقفون يرفضون بشمم ويأبون بكبرياء ويفرضون مواقفهم بعزة ويحققون مطالبهم بأنفة ويتطلعون إلى الحرية والعلية بأمل ولما يقبلون بفتات يلقي إليهم أو بحسنات تدفع لهم مهما بلغت حاجتهم وعظمت مأساتهم.

الفلسطينيون يعرفون هذه الحقائق عن أسراهم ومعتقليهم ويميزون بينهم وبين غيرهم من القادة والمسؤولين من الذين يتقدمون الصفوف ويظهرون في المناسبات ويشاهدونهم في الصور وإن علا صوتهم وصخب كلامهم وادعوا العفة والصدق والطهر والمشراف والمأمانة والإخلاص فإن الشعب لا يأبه بهم ولما يهتم ولما يصغي إليهم ولما يجري معهم ولما يصدق كلامهم ولما يبني مواقفه على وعودهم ولما يتوقع خيراً من جمععتهم ولما طحيناً من هديرهم لهذا فهم يفضلون عليهم الأسرى والمعتقلين يصدقونهم ويؤيدونهم ويقفون معهم ويناضلون من أجلهم ويتضامنون مع قضاياهم ويتبنون مطالبهم ويخرجون إلى الشوارع متظاهرين نصرته لهم أو معتصمين ضغطاً من أجلهم فهم يرون أنهم على الحق المبين ويتمسكون بحبل المقاومة المتين.

الإسرائيليون يحقدون على الأسرى والمعتقلين ويكرهونهم ويتمنون موتهم أو قتلهم ويحلمون بالإخلاص منهم والقضاء عليهم ولما يرغبون في أن يخرجوا من سجونهم أحراراً أو أن يعيشوا بين أهلهم وشعبهم طلقاء بل يتمنون أن يقضوا كل عمرهم في السجون

وفيها يموتون ويسعون من خلال ممارساتهم معهم وسياساتهم المتبعة ضدهم إلى إذلالمهم وقهرهم وإخضاعهم وقتل روحهم المعنوية فهم أكثر من يدرك تأثيرهم ويعرف قيمة دورهم وهم يشعرون بأن تصريحاتهم كالسحر أثرها على شعبهم الذي ينتفض من أجلهم ويثور انتقاماً لهم وانتصاراً لقضيتهم ولما يبالي بأي تضحيات في سبيلهم.

يدرك العدو الإسرائيلي قيمة الأسير الفلسطيني بحق ويعرف أنه رغم قيوده والأغلال والسجون والمقضبان والعزل والحرمان والمحجوب والإبعاد قادر على أن يحرك الشارع الفلسطيني كله وأن يقود الجماهير الشعبية وأن يوجهها حيث يريد فهو إن أعلن إضراباً عن الطعام أو اعتصم واعترض انتفض الشعب معه وتضامن مع قضيته وسخر كل إمكانياته لنصرتة. تقوم سلطات السجون من حين إلى آخر بمداهمة غرف الأسرى وأقسامهم بحثاً عن أجهزة خلوي ووسائل اتصال أخرى كما تصادر ما تجده من أوراق ورسائل وكتابات ومنشورات أياً كان نوعها أو مضمونها فهي تخشى أن تكون أوراق الأسرى رسائل تحريضية أو دعوات للانتفاضة أو توجيهات لمجموعات عسكرية يشرفون عليها ويتابعون عملها بعد أن قاموا بتنظيمها وربط حلقاتها ووصل أطرافها أو أنها مخططاتهم للأيام القادمة إن كانوا ينوون الإضراب عن الطعام أو القيام ببعض الأنشطة والفعاليات الاحتجاجية ضد إدارة السجون وممارساتها القمعية بحقهم.

الأسير الفلسطيني لا يملك أبواقاً إعلامية ولما مؤسسات صحفية ولما ناظقين باسمه أو معبرين عنه ولما تلتقيه الصحف أو تسرب أخباره وكلمات الأنبياء ذلك أن العدو لا يسمح له بالظهور على شاشات الفضائيات أو إجراء المقابلات والمقاربات ولما تقبل أن يعبر عن قضيته أو أن يبين معاناته وصورته المنشورة هي صورة قديمة قد تغير شكله بعدها وتبدل فلا يعرفه كثير من الناس ولكنهم يسمعون باسمه ويفخرون بفعله.

يدرك الأسرى عظم الأمانة التي يحملون وأهمية الدور الذي يقومون والرمزية التي يمثلون فيبدون استعدادهم أكثر لتحمل المزيد من المعاناة إكراماً لشعبهم الذي أولاهم الثقة وتقديراً لأمتهم التي تتبنى قضاياهم وتدافع عن حقوقهم فيخوضون إضرابات عن الطعام قد تطول لأكثر من شهرين ويغامرون بحياة بعضهم ومستقبل أجسامهم التي يصيبها التلف والمعطب إن لم يستشهد بعضهم خلال فترة الإضراب لكن هذا المصير المخيف أمام قضيتهم الكبرى يهون فهم يعتقدون أن الشهادة قد فاتتهم وأن رفاقاً لهم وإخوة على الدرب قد سبقوهم فنادوا شرف الشهادة قبلهم فلماذا منها يهربون وعنهم يتأخرون وعن دربهم يحييدون.

أسماء الأسرى العملاقة الأعلام الذين كان لهم الفضل في تحريك الشعب وإيقاظ الأمة كثيرة ممن قضوا في السجون عشرات الأعوام وخاضوا أعظم الإضرابات وسجلوا أكبر الانتصارات وصنعوا أكبر الأمجاد وحققوا أكثر الإنجازات وكان لهم أعظم الدور في تحريك وسائل الإعلام وتسليط الضوء على قضاياهم الخاصة وقضية شعبهم العامة ولهذا سأكتفي بالحديث العام عنهم لأنهم جميعاً أعلام يستحقون الذكر ويستأهلون المجد حتى لا نغمت حق أحدهم ولما ننسى آخر وسنكتفي بالعموم فهم جميعاً أهل الفضل والمنة وأصحاب السابقة والبدرية ذدين لهم بالحب والوفاء والتقدير والعرفان ونسأل الله عز وجل لهم عاجل الحرية والسلامة التامة من كل ضير وضيم وأذية .